فلسفة الفن عند أبي حيان التوحيدي

ARTICLE TITLE: «PHILOSOPHY ART AT ABI HAYYAN ET-TAWHIDI»

الطالب: علي بن التومي
إشراف: أ.د. بلحاج طرشاوي
جامعة وهران 1(الجزائر)
البريد الالكتروني: alioncg@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/09/14 تاريخ القبول:2019/10/05 تاريخ النشر: 2019/12/12

ملخص:

يعتبر علي بن محمد ابن العباس التوحيدي الملقّب بأبي حيّان، واحد من أشهر الأدباء والفلاسفة والمتصوّفة. لم يصلنا عنه إلاّ القليل وقيل أنّ التاريخ تجاهله فلم يصلنا في الغالب إلاّ ما ذكره هو عن نفسه، لقد جمع بين الإبداع الأدبي والتفكير الفلسفي، فقيل عنه أنّه أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء كان علمه واسعا موسوعيا وتكشف مؤلفاته عن شخصية ذكيّة ودقيقة الملاحظة، ويعود الفضل في التعريف بالتوحيدي إلى ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء. ويرى التوحيدي أنّ معرفة الذات هي السبيل الوحيد لمعرفة العالم وامتلاكه جماليا، والجميل في نظره هو ما يستمدّ صفاته وأفعاله من صفات الله تعالى.

الكلمات المفتاحية:

الفن ; الإبداع ; التوحيدي ; فلسفة الفن ; علم الجمال.

***ABSTRACT* :**

Muhammad Ibn al-Abbas al-Tawhidi, nicknamed Abu Hayyan, is one of the most famous writers, philosophers and mystics. We have not received much from him. It is said that history ignored him. We did not reach him often, except that he mentioned himself. He brought together Arab creativity and philosophical thinking. He was the author of philosophers and the philosopher of literature. His knowledge is vast and his books reveal a clever and accurate personality. The observation is attributed to the monotheistic definition of the Yacout Hamwi in his book The Dictionary of Literary... Tawhidi believes that self-knowledge is the only way to know the world and to possess aesthetics and beauty in its eyes is to derive its qualities and actions from the attributes of God.

***Keywords*:**

Art;Creativity; Al-tawhidi; Philosophy of art; Esthétique.

1- مقدمة:

يعدّ أبو حيان التوحيدي في طليعة المؤلّفين والمفكّرين والكتاب الذين عرفوا بغزارة النّتاج، فكان أبعد باعا وأعمق فكرا في شؤون الفكر وقضايا النّفس، فاهتمّ بالفن والجمال والتذوّق الجمالي، إذ كانت السمات الكبرى التي كان التوحيدي من خلالها يميّز الإنسان هي الحاسّة الفنيّة أو القدرة على التذوّق الجمالي، الذي يخضع عنده إلى مجموعة من التفاعلات بين الذات والموضوع والإدراك العقلي وكل هذا يتمّ عن طريق البصر والبصيرة، الأمر الذي جعل فكر وفلسفة الفن والجمال عند التوحيدي منهلا للكثير من الدارسين والباحثين في شتى المجالات خصوصا عندما يتعلّق الأمر بالدراسات النقدية والفنية وحتى الأدبية. ومنه نطرح إشكالية

فلسفة الفن والجمال عند أبي حيّان التوحيدي ومفهوم التذوق الجمالي عنده، وأثر ذلك على الفكر في الفن والفلسفة.

من خلال ما سبق نطرح مجموعة من التساؤلات مفادها:

- من هو أبو حيان التوحيدي؟ وما هو مساره العلمي؟

- ما هي آثاره على الفن والفلسفة؟

- كيف جمع بين فلسفة الفن والتذوق الجمالي؟

2- أبو حيان التوحيدي:

2-1. ترجمته:

يقول ياقوت الحموي في ترجمة التوحيدي:"علي بن محمد بن العباس أبو الحيان التوحيدي، شيرازي الاصل، وقيل نيسابوري، ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطي، صوفي السمت والهيئة، قدم بغداد وأقام بها مدة، ومضي الى الري وصحب الصاحب أبا القاسم اسماعيل بن عباد وقبله أبا الفضل بن عباد وقبله أبا الفضل بن العميد فلم يحمدهما، وعمل في مثالبهما كتابا.."[1]. وكنيته أبو حيان وغلب عليه تلقيبه بالتوحيدي، وقد كان أبوه يبيع تمرا في بغداد اسمه التوحيد.

ذكر ياقوت الحموي أنه شيرازي الأصل، وذكر غيره أنه من أهل نيسابور، وقيل واسطي قدم بغداد فأقام بها مدة من الزمن، ثم انتقل إلى الري[2]، وورد في معجم الأدباء أنه عمدة لبني ساسان، وهو ما يؤكد نسبته إلى فارس في رأي ياقوت الحموي، ونقل السيوطي عنه أنه شيرازي أو نيسابوري. وجزم الدكتور زكي مبارك أنه فارسي[3].ويرى البعض أنه عربي الأصليدل على ذلك جملة من الأمور، حيث يري ابن حجر العسقلاني أن اللقب نسبة إلى التوحيد، لأن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد[4].

ولد التوحيدي في بغداد سنة311هـ أو 310هـ من أبوين فقيرين، وكان أبوه يعيش من بيع التمر.ان القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي من سنة 311الى سنة 414.

وقد قال بعضهم: "لا تسألني متى ولد، ولا أين ولد، فدلك رجل نشأ في بيئة خاملة لم تكن تطمع في مجد، حتى تقيد تاريخ ميلاده"[5] وليس في مؤلفاته مايدّل أنه فارسي، ولو كان كذلك لتباهى به، وقد كانت الغلبة في عصره للفرس، وقد سعى إلى التقرب من أمرائهم وحكامهم.كما أن اسمه واسم أبيه وكنيته كلهم يدلون أنه عربي.

والمطلع على كتابه المسمى: "شيرازنامة" وهو أدق المصادر في تاريخ الفرس يدرك أن أبا حيان ورد شيراز.وأنه كان يجهل الفارسية[6].

وكان أبو حيان يمارس الوراقة والنسخ ببغداد قبل أن يرحل إلى ابن عباد، وكان جميل الخط، دقيق النقل، خبيرا بالتصحيف والتحريف. وورد أنه كان يسميه حرفة الشؤم[7]،وهو مكتبة جامعة لشتّى المعارف والعلوم، فهو عالم واسع المعرفة، متنوع الثقافة خبير باللغة والنحو والأدب والصرف والتصوف والفقه والفلسفة، وربما لم يند عنه إلا الطب والكيمياء والرياضة[8].

ويذكر ياقوت الحموي:" أنه شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المتحققين، وإمام البلغاء، وعمدة لبني ساسان سخيف اللّسان، قليل الرضي عند الإساءة إليه و الإحسان، الذم شانه والسلب دكانه، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية و الرواية..."[9].

ذكر ياقوت الحموي: "أنه كان سخيف اللسان، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه، والسلب دكانه. وكان مع ذلك محدودا محارفا يشتكي صرف زمانه، ويبكي في تصانيفه على حرمانه".

وكان يتأله والناس يقولون في دينه، قدم بغداد فأقام بها مدة، ومضى إلى الري وصحب الصاحب أبا القاسم إسماعيل بن عباد وقبله أبا الفضل ابن العميد فلم يحمدهما، وعمل في مثالبهما كتابا، كان متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وكان جاحضيا يسلك في تصانيفه مسلكه[10].

2-2. وفاته:

إنه من الصعب أن نصدق أن أحدا لم يهتم بتاريخ وفاة رجل كالتوحيدي، وهو لا شك من أعلام المسلمين، ولعله من أنبغهم في عصره، فهو صاحب فكر مستنير وذهن متفتق، أدرك جواهر الأمور واستوعب حقيقة النفس فصبر أغوارها. وعادة الناس أن لا ينتبهوا لتاريخ الميلاد في ذلك العصر، لأن شأنهم أن لا يدركوا ما سيكون عليه الرجل من بلوغ درجة العلم، لهذا فقد أخلطوا خلطا كبيرا في تحديد وفاته وليس الرجل بالنكرة، ولعل ذلك يرجع إلى شخص التوحيدي،أين كان محط حسد من أقرانه ومصدر عداوة لكثير منهم، بسبب سخطه وقلة شكره وعدم حفظه للمودة، وقد زاد على ذلك كله سلاطة لسانه، فنفر الناس منه عامتهم قبل خاصتهم.

يرجع الكثيرون تاريخ وفاته إلى سنة 360هـ، فقد ذكر أبو العباس أحمد بن أبي الخير الشيرازي أنه سمع أباه يقول رأى قبر التوحيدي مكتوبا عليه أنه توفي سنة 360هـ. وذكر آخرون أنه توفي سنة 414هـ.

وذكر السيوطي أنه توفي سنة 380هـ[11]. وقد ثبت أن أبا حيان التوحيدي قد كتب رسالة إلى القاضي آبي سهل على بن محمد بن رمضان سنة 400هـ، كما يذكر السبكي أ ن أبا سعيد عبد الرحمن الأصفهاني سمع من التوحيدي بشيراز سنة 400هـ وذكر التوحيدي أنه كتب رسالته المسماة الصداقة والصديق سنة 400هـ، كما ذكر القزويني أنه توفي سنة 414هـ[12].

2-3. عصره:

بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها في العلوم والفنون، وانقسمت الدولة إلى دويلات وطمح كل أمير في الاستقلال، ففارس والري وأصبهان والجبل في أيدي بني بويه، والموصل وديار ربيعة وديار بكر في أيدي بن حمدان و مصر والشام في أيدي محمد بن طفيح الأخشبي، والمغرب وأفريقيا في أيدي الفاطميين... واحتفظ الخليفة بمكانة صورية واعترف به أصحاب السلطة الحقيقة في هذه الدويلات، واحتفظوا بالدعاء له في المساجد، وإرسال الهدايا[13].

كان عصره مليئا بالتناقضات التي تعيننا على فهم طريفته في التفكير، وأسلوب معاشه، وسماته الشخصية، فالتوحيدي عاش في بيئة حافلة بالفوضى وشيوع الفتنة والاضطراب، وتفشي الارهاب السياسي والاضطهاد المذهبي، وتدهور الوضع السياسي للخلافة العباسية، وتفكك الأمصار عن دولة الخلافة، وتغلغل الأعاجم في جسم الدولة وسيطرتهم على أمورها، وتفاقم الصراع الطبقي والعرقي، وعرفت الحياة الاجتماعية و الاقتصادية فسادا كبيرا خاصة في فترة حكم بني بويه[14].

وانقسم المجتمع الى طبقتين:

-طبقة الفقراء التي تعيش الحرمان والشقاء والغبن.

-وطبقة الرؤساء والأغنياء التي انغمست في الترف والبذخ واللهو.

وفي مقابل هذا الانهيار عاصر التوحيدي في القرن الرابع رقي الحياة العقلية وتقدم العلوم والفنون،و تألق العمارة والإدارة والتجارة. ووفرة المجالس العلمية والثقافية. وازدانت بغداد بثمرات تلك الحضارة المادية والمعنوية. وازدحمت بالنوابغ في الأدب والفلسفة وعلوم الدين ومن هؤلاء ابن سينا والخيام والمعري والبقلاني والبيهقي والقشيري ومسكويه والأسفراني والمتنبي وعثمان ابن جني والشريف الرضي ومهيار الديلمي وابن العميد الكاتب والصاحب ابن عباد وابن النديم[15].

2-4.شخصية التوحيدي:

التوحيدي شخصية قلقة حائرة معتلة الطبع ذات مزاج سوداوي، قائمة على الازدواج والتناقض والتمزق الداخلي، لم يعرفه الناس الا باكيا شاكيا مفرطا في السخط وذمّ الناس، مؤلفاته ملئى بالتشكي والسخط و التدمر من ضيق الحال ونأي الأصحاب والخلاّن[16].

واتهم الكثير من العلماء التوحيدي في دينه وعدوه من الزنادقة، فقال ابن الجوزي (ت597هـ):" زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الرواندي والتوحيدي وأبو العلاء المعري، وأشدهم على الاسلام التوحيدي...."وتابع الذهبي(ت747هـ) فقال:" إن أبا حيان كان عدوا لله خبيثا، سيئ الاعتقاد"، وعلى نقيض ذلك شهد له غيرهم من العلماء بصحة الدين وسلامة العقيدة، وأن ما في كتبه لا يدل على زندقته ومن هؤلاء ياقوت وابن النجار والسبكي[17]، والظاهر أن للحسد والجهل مدخلا كبيرا في الطعن على التوحيد.

وكان التوحيدي متزلفا للحكم والوزراء، لا شخصية له، يتذلل في غير وقار، ودون حياء، وينزل نفسه تحت منزلة العلماء وكأنه رجل وضيع، لاأهمية له. فنجده يقول متزلفا: "أنا سامع مطيع وخادم شكور أنا لا اشتري سخطك بكل صفراء وبيضاء في الدنيا. ولا أنفر من التزام الذنب والاعتراف بالتقصير، ومثلي يهفو ويجمع ومثلك يعفو ويصفح، وأنت مولى وأنا عبد، وأنت آمر وأنا مؤتمر، وأنت ممتثل وأنا ممتثل وأنت مصطنع وآنا صنيعة،وأنت منشئ وأنا منشا، وأنت أول وأنا أخير وأنت مأمول وأنا آمل"[18].

3- آثار التوحيدي:

ترك أبو حيان العديد من من المخطوطات حقق البعض منها ونشر، وكان التوحيدي قد أحرق كتبه قبل موته، فلم يصل الينا الكثير منها، ومع دلك فما وصل لا نظير له.ولقد أغفل ذكره ردحا من الزمن، ثم بدأ الكثير من الدارسين يهتمون بالرجل وبفكره وتراثه.

تبين مطالعة كتبه أن الرجل كان فنانا وناقدا وفيلسوفا فنيا، ولعله أول من وضع أسس علم الجمال العربي مأخوذا من أراء معاصريه، ومدبجا بأسلوبه، بل لقد أضاف إليه من أفكاره الشيئ الكثير،"وماكتبه التوحيدي هو زبدة أراء المفكرين العرب والأدباء و الفنانين الذين اهتموا بالفن والصناعة"[19]، كما وقد عرض في مؤلفاه الى مواضيع علم الجمال والابداع والتذوق ودور العقل ولحواس ولموضوع العبقرية والالهام البديهة.

1-3. مؤلفاته:

الصداقة والصديق: ويتحدث فيه عن مفهوم الصداقة ولكن بروح بنقديةتعكس ياسه من اصدقائه.

البصائر والدخائر وفيه عرض للادب والتاريخ واللغة والحديث والتفسير، وهو يكشف عن ثقافة موسوعية، وموضوعية علمية، واسناد واسع.

أخلاق الوزيرين او مثالب الوزيرين: وفيه يوجه النقد للوزيرين ابن العميد وابن عباد لسوء معاملتهما له.

الهوامل والشوامل: والهوامل الابل السائبة والشوامل هي الحيونات التي تضبط الابل، والفه سنة 375هـ بعد مقتل الوزير الصديق ابن سعدانوفيه اسئلة وجهة الى ابن مسكويه في الفلسفة وعلم الكلام.

الاشارات الالاهية: وبلغ فيه اعلى مراتب البيان النحوي مع الله، كتبه بعد ان احرق كتبه، تعبيرا عن موقفه الصوفي.

المقابسات: وهو عبارة عن محاورات بين العلماء،موضوعها الفلسفة والمنطق، والطبيعة و الالاهيات.

المتاع والمؤانسة: وقد افه في بداية حياته، وهو من اثار ابي حيان التوحيدي، وهو اول كتاب محقق منشور ظهر في مصر مند عام 1939هـ[20].

وله تصانيف كثيرة نذكر منها:

كتاب "الرد على ابن جني في شعر المتنبي،"كتاب "الزلفة" جزء واحد،كتاب "رياض العارفين"، كتاب "تفريط الجاحظ"،كتاب "الحج العقلي"، "إذا ضاق الألفضاء عن الحج الشرعي"،كتاب "الرسالة البغدادية"،كتاب "الرسالة الصوفية"،كتاب "الرسالة في صلات الفقهاء في المناظرة"،كتاب "الرسالة في الحنين الى الأوطان"،كتاب "البصائر وهو عشر مجلدات" طبع سنة 1925،كتاب "المحاضرات والمناضرات" طبع سنة 1925.

وكان أبو حيان التوحيدي قد أحرق كتبه في آخر عمره لقلة جدواها وظنّا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته، فكتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يعذله على صنيعه، ويعرفه قبح ما اعتمد من الفعل وشنيعه، فكتب اليه أبو حيان يعتذر:

"حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول جفائك، وأعاذني من مكافئتك على ذلك،...إن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ماكان سرا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبا، وأما ماكان علانية فلم أصب ما يحرص عليه طالبا، على أني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم، فحرمت لك كله، ولا شك في حسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي وربطه بامري....ومما شحد العزم على ذلك اني فقت ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا، وصاحبا قريبا،وتابعا اديبا، ورئيسا مثيبا، فشق على ان ادعها لقوم يتلاعبون بهاويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي ادا تصفحوها، ويتراؤون نقصي وعيبي[21].

4- فلسفة الفن عند التوحيدي:

إننا نعثر في ثناي كتب التوحيدي على الكثير من المسائل التي تهتم بموضوع الفن وعلم الجمال والتذووق الجمالي، وقد انصرف اهتمام التوحيدي إلى الجانب البلاغي، وفن الشعر وشتى فنون الكتابة، ومع ذلك فإن الأمر لم يثنه عن معالجة مواضيع عديدة تدخل في باب الفن.

وان كان الناس قد اعتادوا تمييز الانسان عن الحيوان بالعقل، فان التوحيدي خالف مذهبهم وميزه بسمة أخرى وهي الحاسة الفنية أو القدرة على تذوق الجمال.

ويذكر على لسان أستاذه أبي سليمان:" إن الانسان متميز على الحيوان بالأيدي لاقامة الصناعات وابراز الصورفيها لما في الطبيعة بقوة النفس*".

والمعلوم أن كلمة الصناعة يراد بها عند العرب" الفن"ويمكن أن نلاحظ أن التوحيدي يركز على أهمية اليد في إبراز الصورة* الجميلة، ويؤكد على دور النفس في العمل الفني.

كما يمكن أن نلاحظ أن التوحيدي ينحى منحى القائلين بحاكاة الفن للطبيعة.

فالانسان إذا هو الوحيد القادر على إبداع الصورة الفنية والقادر على إدراك الجمال. وإن كان الناس يتمتعون بكل ماهو جميل، فلعلهم لا يدركون السر وراء ذلك، ولكن التوحيدي يغوص في البحث عن سر المتعة الجمالية، من خلال مقبساته مع أستاذه ابن مسكويه حين يسأله ماسبب استحسان الصورة الحسنة؟

وماهو هذا الولع الظاهر، والنظر، والعشق الواقع من القلب. والفكر الطارد للنوم، والخيال المائل للأنسان؟

أهذه كلها من أثار الطبيعة؟ أم هي من عوارض النفس؟ أم هي من دواعي العقل، أم من سهام الروح؟ أم هي خالية من العلل جارية على الهدر؟

وهل يجوز ان يوجد مثل هه الأمور الغالبة، والاحوال المؤثرةعلى وجه العبث، وطريق البطل؟[22]

الظاهر من النص الذي بين أيدينا أن التوحيدي يدرك حقيقة مايبحث عنه وهو الإدراك الجمالي، فهل هو مجرد ظاهرة طبيعية، أم ظاهرة نفسية، أم ظاهرة عقلية، كما انه مهتم أيضا بالوقوف على شتى مظاهر الأعراض الجسمية والنفسية التي تلحق عاشق الجمال[23].

قال أبو علي مسكويه: "أما سبب الإستحسان لصورة الانسان فكمال في الأعضاء، وتناسب بين الاجزاء مقبول عند النفس".

وأقول: إن الطبيعة مقتفية أفعال النفس وآثارها، فهي تعطي الهيولى* والأشياء الهيولانية صورا بحسب قبولها، وعلى قدر استعدادها، وتحكي في ذلك فعل النفس فيها- في الطبيعة- ولكنها هي بسيطة، فتقبل من النفس صورا شريفة تامة، فإذا أرادت أن تنقش الهيولى بتلك الصور أعجزت الأمور الهيولانية عن قبولها تامة وافية، لقلة استعدادها، وعدمها القوة الممسكة الضابطة ما تعطاه من الصور التامة[24].

فكما أن الصناعة* تقتفي الطبيعة، فإذا صنع الصانع تمثالا في مادة موافقة فقبلت منه الصورة الطبيعية تامة صحيحية، فرح الصانع، وسر وأعجب، وافتخر، لصدق أثره، وخروج ما في قوله إلى الفعل موافقا لما في نفسه، ولما عند الطبيعة، فكذلك حال الطبيعة مع النفس، لان نسبة الصناعة إلى الطبيعة في اقتفاءها إياها كنسبة الطبيعة إلى النفس في اقتفائها إياها.

ثم إن من شأن النفس إدا رأت صورة حسنة متناسبة الأعضاء في الهيئات وفي المقادير والألوان وسائر الأحوال، مقبولة عندها، موافقة لما أعطتها الطبيعة، اشتاقت إلى الإتحاد بها، فنزعتها عن المادة، واستثبتتها في ذاتها، وصارت اياها، كما تفعل في المعقولات[25].

ويمضي التوحيدي في تساؤلاته عن التذوق الجمالي إلى أبعد الحدود فيتسآل عن العلة وراء كون الصورة الماثلة أمامنا كثيرا ماتنسي سابقاتها من الصور وإن كانت أجمل منها، يقول في معرض مطاراحاته مع شيخه ابن مسكويه: " لما إدا أبصر الانسان صورة حسنة او سمع نغمة حسنة، قال والله ما رأيت مثل هذا قط، ولا سمعت مثل هذا قط، وقد علم أنه سمع أطيب من ذلك، وأبصر أحسن من ذلك...."[26].

ويجيبه ابن مسكويه إجابة مدرك حقيقة التذوق الجمالي، واستوعب كنهه و أبعاده، وهي إجابة دقيقة دقة سؤال التوحيدي:"أما بحسب الفقه ومقتضى اللغة فإنه غير حانث ولا مخطئ، لأن شيئا لايماثل شيئا بالاطلاق، ولا يقال في شيئ: هذالا مثل هذا غلا بتقييد، فيكون مثله في جوهره، أو كميته، أو كيفيته، أو غير ذلك من سائر المقولات، وقد يماثله في إثنين منهما وأكثر، فأما في جميعها فمحال"[27]، ولعل هذا من أحسن ما قيل في الادراك الجمالي، شرحا وتوضيحا، وتنويرا للأفهام وتفتيقا للأذهان.

ويحرص التوحيدي على بيان أوجه الخلاف بين الإنفعال الجمالي وغيره من من ضروب الانفعالات النفسية الأخرى، مما يدلنا على عنايته الشديدة بالوقوف على طبيعة ذلك النوع الخاص من الانفعال الذي يقترن برؤية الجمال أو سماعه. فيقول في معرض الحديث عن السماع:"لم صار من يطرب الغناء ويرتاح لسماع يمد يده، ويحرك راسه، وربما قام وجال ورقص ونعر وصرخ، وربما ععدا وهام. وليس هكذا من يخاف، فانه يقشعر ويتقبض، ويواري شخصه، ويغيّب أثره، ويخفض صوته، ويقلّل حديثه"[28].

4-1.علاقة الفن بالطبيعة*:

يذكر التوحيدي على لسان مسكويه: "إنّ الطبيعة فوق الصناعة، وأنّ الفن دون الطبيعة، وأنّ دور الفن التشبه بالطبيعة، وليس بمقدوره الفنان أن يتجاوز ذلك مدعيا إكمالها. وتكمن قوة الطبيعة في أنّها إلهية، أمّا الفن فهو بشري مستخرج من الطبيعة".

وليس بمقدور أي قوة بشرية أن تتساوى مع قوة إلهية، إلا عن طريق التشبيه والتقريب. والفن متناه على عكس الطبيعة، وليس من الممكن أن يصل الفن إلى معارضة الطبيعة إلا عن طريق البرهان الواضح[29]، على أن أفضلية الطبيعة على الفن ليست ثابتة، فإنّ للحس دوره في تعديل وتحوير الطبيعة، لأنّ الأشياءلا يمكن أن تتماثل بالإطلاق.

فهو يري أن الطبيعة قد تحتاج الفن أيضا، فقد سمع غلاما يغني، فترنّح الجمع وتهادوا وطربوا وقال قائلهم:" لو كان لهذا من يخرجه ويغني به ويأخذه بالطرائق المؤتلفة والألحان المختلفة، لكان يظهر أنّه أية، ويصير فتنة. فإنه عجيب الطبع بديع الفن..."[30].

قال أبو سليمان:"إن الطبيعة انما احتاجت إلى الصناعة في هذا المكان، لأنّ الصناعة هنا تستجلي من النفس والعقل، وتملي على الطبيعة. وقد صحّ أن الطبيعة مرتبتها دون النفس، تقبل آثارها وتتمثل أمرها، وتكمل بكمالها، وتعمل على استعمالها، وتكتب بإملائها، وترسم بإلقائها، والموسيقى حاصل للنفس موجود فيها على نوع لطيف وصنف شريف، فالموسيقار إذا صادف طبيعة قابلة ومادة مستجيبة وقريحة مواتية وآلة منقادة، أفرغ عليها بتأييد العقل والنفس لبوسا مؤنقا، وتأليفا معجبا... فمن هنا احتاجت الطبيعة إلى الصناعة، لأنها وصلت غلى كمالها من ناحية النفس الناطقة بواسطة الصناعة الحادثة"[31].

4-2.طبيعة الجمال:

الموجودات تستمدّ جمالها من جمال مصدرها، فهي موجودة بالقوة في العلم الإلهي التي كانت موجودة في علمه قبل أن تكون موجودة.

صفات الله وأفعاله هي المثل الأعلى في الحسن وأن الأشياء كلها تستمد جمالها من تلك الصفات والفعال، ويرجع هذا التوجه الديني إلى تكوين التوحيدي الديني فهو يقرر أن:"صفات الله وأفعاله، هي من الحسن في غاية لا يجوز أن يكون فيها أي درجاتها شيء من المستحسنات، لأنها هي سبب حسن كل حسن، وهي ا لتي تفيض الحسن على غيرها، إذ كانت معدنه ومبدأه، وإما نالت الأشياء كلها الحسن والجمال والبهاء منها وبها"[32]، فمصدر لجمال هو الله، مثال الجمال، وخالق الوجود، ومثال الجمال لا ينشأ ولا ينعدم، فهو خارج الزمان والمكان، والحركة والتغير غريبين عنه، وهو يفيض بالجمال على الموجودات كلها لانها صادرة من عنده و صادرة عنه"[33].

ولما كانت جمالية الأشياء كلها مستمدة من الجمال الالهي، فإن الوصول إلى هذا الجمال لا يكون عن طريق الحواس، وإنما عن طريق العقل، لأن الحواس مهالك مضلة، والعقول ممالك مدلة على الملك، والعقل خليفة العلة الأولى*، ومنها يستمد ضياءه. يقول التوحييدي:" وإنما الريب والشك والظن والتهم كلها من علائق الحواس وتوابع الخلقة، ولولا هذه العوارض ما أغبر وجه العقل، ولا علاه شحوب ولبقي على نظرته وجماله وحسنه وبهجته"[34].

ويرى التوحيدي أن هناك نوع من الجمال يدرك بالحس، وهو خاضع للتطور الاجتماعي في الطبع الانساني والعادة الاجتماعية[35]، أي أن الطبع الانساني والعادة الاجتماعية متغير بتغير الأحوال والأسباب والزمان والعادات.

وإذا كان جمال الجوهر جمالا مطلقا فإن جمال الأعراض من الأشياء والأفعال الانسانية جمال نسبي مستمد من طبيعة ما تضاف اليه. فالأشياء المادية ليست جميلة وليست قبيحة على وجه الاطلاق. وانما هي جميلة في مكان وقبيحة في مكان، فهي قبيحة بسبب ماتصاف إليه[36].

4-3. طبيعة الإبداع:

الصناعة، أو الإبداع الفني هي قدرة النفس البشرية على الفعل، المصحوب بالتفكير والتأمل، الساعي نحو غاية محددة، فالأبدع عمل إنساني يسعى من خلاله إلى تقليد الطبيعة ومماثلتها، أما الطبيعة فهي إبداع الهي.

فالإبداع يصبوا إلى إظهار صور مشابهة لصور وموضوعات القائمة في الطبيعة، غير أنه إبداع لا يرقى أبدا في كمال موضوعاته إلى كمال موضوعات الطبيعة التي يقلدها. الطبيعة إذا هي النموذج الذي نسعى لتقليده ومقاربته والصناعة على شاكلته، ولهذا سيبقى محكوما بالقصور عن النموذج المقلد، ذلك أن الطبيعة التي نقلدها تستمد كمالها من الذات الإلهية[37].

والتوحيدي لا يفصل بين الحس والعقل، فهما ضروريان للحياة الإنسانية، والمعرفة والعمل معا، و هو يدعو إلى سيطرة العقل على الحواس، غير أن العقل لا يستطيع العمل دون أن يعتمد على الحواس[38]. فالحواس أدوات طيعة في خدمة العقل، وابرز هذه أدوات، السمع والبصر:" فهما خادما النفس في السرّ والعلانية، ومؤنساها في الخلوة، وممداها في النوم واليقظة".

العقل والحواس، ضرورية للإنسان في الإبداع الفني، فالحواس تقدم للعقل المادة الأولية وتمده بالأشياء وبظواهر الواقع، والعقل يقوم بالتحليل واتخاذ المواقف. ثم يحتاج بعد ذلك إلى أدوا ت للتعبير عن مواقفه، وهي حاسة النطق الأيدي. النطق لإبراز الواقف النظرية والفكرية، والأيدي لتجسيدها في أعمال يدوية[39].

4-4. التذوق :

التذوق عند التوحيدي يقوم على الحدس، كالإبداع، فهو يقوم على شروط مشابهة.وهو يطرح سؤالا عن العلة في استحسان الصورة."ما سبب استحسان الصورة المحسنة ؟ أهذه من آثار الطبيعة أم هي من عوارض النفس أم هي من دواعي العقل؟ أم من سهام الروح؟"، كما يجيب عن السؤال ابن مسكويه: "بأن للذات والموضوع- الطبيعة- دورا في تحقيق التذوق الذي يتم بالحدس أيضا، لوجود عوامل معقدة تجعل الإدراك العقلي، وحده عاجزا عن التذوق"[40]. ويقول التوحيدي حول شروط التذوق: "ثم إن من شأن النفس إذا رأت صورة حسنة متناسبة الأعضاء في الهيئات والمقادير و الألوان وسائر الأحوال مقبولة عندها موافقة لما أعطتها الطبيعة، اشتاقت إلى الاتحاد بها، نزعتها من المادة واستثبتنها في ذاتها وصارت إياها"[41].

يخضع التذوق إلى تفاعل الذات والموضوع، فالذات هنا في المتذوق الذي يجب أن يتمتع بمزاج معتدل فلا ينفر إلى الغريب المتطرف الشاذ والمنحرف. أمّا الموضوع وهو هنا الأثر الفني، فيجب أن يمتع بتناسب أعضائه في الشكل واللون وسائر الهيئات لكي يصبح جديرا بالاستحسان.

إن الإدراك العقلي ليس كاملا لأن هناك عوامل تتدخل في التذوق، هي مادة الموضوع وشكله وصورته، ومزاج المتذوق. لذلك لابدّ للمتذوّق من الوهم المركّب، وهو تابع للحسّ والحسّ تابع للمزاج والمزاج أثر من أثر الطبيعة.

ويرى التوحيدي أن الرؤية تتم بالبصر والبصيرة، فهناك حوار مستمر بين النفس(الذات) وبين الطبيعة(الموضوع) فالطبيعة تتلقى أعمال النفس وأثرها. ولذلك عندما تتشكل صورة الهيولى، أي المادة الخام للأعمال الفنية، فإنها تجعل هذه لصورة وفق رغبة النفس (الذات) حسب استعدادها لقبول هذه الصورة. وهذا هو التذوق عند أبي حيان[42].

5- الخاتمة:

ونخلص في الأخير إلى أنّ التوحيدي يربط ربطا وثيقا بين مفهوم الجمال، وبين الأمر النّافع الذي يؤدي غاية، فيه نفع الانسان، فإدراك العالم المادّي نسبي خاصة جمال الواقع المرتبط بالإنسان، الذي تخضع جماليته للنسبية، وهي أمر منبعث ممّا تقدمه من خير أو شر، فكلّ شيئ يمكن أن يكون خيرا أو شرا، فإن أدّى غاية خيرة فهو جميل، وإن أدّي غاية شريرة فهو قبييح، فالشيء لا يكون جميلا إلاّ بقدر ما يقدم من خير، ولا يكون قبيحا إلا بقدر ماتقدم من شر، فالجمال عند التوحيدي مطلق، لا يدرك إلا بالعقل، وأيّ توهم في إدراك هذا الجمال أو معرفته سببه الحس، فوجب على الإنسان أن يغلب العقل على الحسّ ليدرك الجمال إدراكا صحيحا لا تشوبه شائبة، فعن طريق العقل ووحده يمكن الوصول إلى الجمال المطلق وخاصة أن مايستحسنه العقل فهو أبدي الاستحسان له، وما يستقبحه فهو أبدي الاستقباح له ولا يتغير ذلك بتغير الأحوال.

6- المصادر المراجع:

1) أبي حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1971.

2) أبي حيان التوحيدي، المقابسات، دار سعاد الصباح، الكويت،الطبعة الثانية،1992.

3) أبي علي مسكويه،الهوامل والشوامل،تحقيق سيّد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2012.

4) أحمد محمد الحوفي،أبوحيان التوحيدي، مكتبة النهضة، مصر، الطبعة الثانية،1964.

5) جمال الغيطاني،خلاصة التوحيدي، دار العارف، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى،1995.

6) حسين الصديق، فلسفة الفن ومسائل علم الجمال عند التوحيدي، دار القلم العربي، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2003.

7) سيد إبراهيم، الأخلاق عند التوحيدي، دار دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1994.

8) عفيف بهنسي، الفكر الجمالي عند التوحيدي، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1997.

9) ياقوت الحموي، معجم البلدان، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الجزء5، الطبعة الأولى،1993.

هوامش:

[1] - ياقوت الحموي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج5، الطبعة الأولى، 1993، ص 1923.

[2] - أحمد محمد الحوفي،أبوحيان التوحيدي، مكتبة النهضة، مصر، الطبعة الثانية،1964،ص22.

[3] - أبو حيان التوحيدي، مرجع سابق،ص26.

[4] - المرجع السابق، ص22.

[5] - المرجع السابق، ص32.

[6] - المرجع السابق، ص26.

[7] - المرجع السابق، ص27.

[8] - معجم الأدباء، مرجع سابق ، ج5، ص 1429.

[9] - المرجع السابق، ن ص.

[10] - المرجع السابق،ج5، ص1923.

[11] - أبو حيان التوحيدي، مرجع سابق، ص22.

[12] - المرجع السابق ، ص 24.

[13] - سيد إبراهيم، الأخلاق عند التوحيدي، دار دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1994،ص6.

[14] - أبي علي مسكويه،الهوامل والشوامل،تحقيق سيّد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2012، ص7-8.

[15] - الهوامل والشوامل، مرجع سابق، ص 09.

[16] - المرجع السابق ،ص 11.

[17] - المرجع السابق ،ص21 .

[18] - أبي حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1971، ص18.

[19] - عفيف بهنسي، الفكر الجمالي عند التوحيدي، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1997، ص19.

[20] - الفكر الجمالي عند التوحيدي، مرجع سابق، ص20.

[21] - معجم الأدباء، مرجع سابق ، ج5، ص1930.

[*] - **النفس:** هي تمام لجرم ذي الة قابة للحركة، وهي جور عقلي متحركمن ذاته بعدد مؤتلف.ويستخدم التوحيدي كلمة النفس بمدلولها الفلسفي المرادف للعقل وليس بمدلولها الديني الذي وردي في القرآن.

[*] - الصورة، بالضم الشكل، وهي ما تنقش به الأعيان وتميزها عن غيرها وقد تطلق على ترتيب الأشكال

[22] - جمال الغيطاني، خلاصة التوحيدي، دار العارف، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى،1995، ص 121.

[23] - خلاصة التوحيدي ، مرجع سابق، ص120.

[*] -الهيولى: قوة موضوعة تحمل صورا منفعلة.

[24] - المرجع السابق، ص120.

[*] -**الصناعة:**هي قوة في نفس فاعلة بامعان مع تفكر وروية، في موضوع من الموضوعات، نحو غرض من الأغراض.فهي قدرة النفس البشرية على الفعل، المشفوع بالتفكير والتأمل، الساعي نحو غاية معينة.

[25] - المرجع السابق، ص120.

[26] - الهوامل والشوامل، مرجع سابق، ص.141.

[27] - المرجع السابق، ص 139.

[28] - المرجع السابق، ص335.

[*] - **الطبيعة:**اسم مشترك يدل عى عدة من احدها ذات كل ششئ عرضالا كان او جوهرا، وبسيطا كان أو مركبا. او هي صورة عنصرية ذات قوتين،،متوسطة بالنفس والجرم، لها بدء حركة، وسكون عن حركة. فطبيعة كل شيء هي ذاته وصوورته العنصريية المادية التي يتكون منها وبسيطا كان أو مركبا، وهي موجدة في الوسط بين قوة النفس وقوة المادة التي تتركب منه.

[29] - الإمتاع والمؤانسة، مرجع سابق، ص88.

[30] - أبي حيان التوحيدي، المقابسات، دار سعاد الصباح، الكويت،الطبعة الثانية،1992ص.163.

[31] - المقابسات، مرجع سابق، ص 164.

[32] - الهوامل والشوامل، مرجع سابق، ص43.

[33] - حسين الصديق، فلسفة الفن ومسائل علم الجمال عند التوحيدي،دار القلم العربي، سوريا،الطبعة الأولى،2003، ص95.

[*] - **العلة الأولى:** هو مبدع الكل،متمم الكل، غير متحرك، يشتاقه كل شيء سواه ولا يشتاق إلى شيء سواه.

[34] - فلسفة الفن ومسائل علم الجمال عند التوحيدي، مرجع سابق، ص99.

[35] - المرجع السابق، ص96.

[36] - المرجع السابق، ص97.

[37] - المرجع السابق، ص112.

[38] - الامتاع والمؤانسة، مرجع سابق، ص 89.

[39] - فلسفة الفن ومسائل علم الجمال عند التوحيدي، مرجع سابق، ص121.

[40] - الفكر الجمالي عند التوحيدي، مرجع سابق، ص103.

[41] - الهوامل و الشوامل، مرجع سابق، ص 140.

[42] - الفكر الجمالي عند التوحيدي، مرجع سابق، ص140.